الأفاق للدراسات الإقتصادية ISSN: 2571-9769, EISSN: 2602-5051
الصفحات: 50– 61.
العدد. السابع.
المجلد: 03 السنة 2019

الرأسمالية كما يراها هراري: رؤية نقدية

Capitalism as Seen by Harari: A Critic Vision

* عثمان عثمانية	وداد بن قيراط
أستاذ محاضر أ	أستاذ محاضر أ
جامعة العربي التبسي –تبسة- الجزائر	جامعة العربي التبسي –تبسة- الجزائر
o.atmania@univ-tebessa.dz	w.benkirat@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2019/08/09 تاريخ المراجعة:11 /2019/09تاريخ القبول: 30 /2019/09

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى توضيح أهم الأفكار الإقتصادية التي جاءت في كتابات المؤرخ والفيلسوف يوفال نوح هراري، سيما تلك التي ظهرت في كتابيه "العاقلون" و"الإنسان الإله،" والوقوف على مدى أصالتها، ومحاولة تقديم حجج مضادة لأفكاره حول الرأسمالية والنمو الإقتصادي.

وقد توصل البحث إلى أن أفكار هراري في أغلبها تفتقد إلى الأصالة، وهي تعبر عن موقف سائد لدى صنف من الإقتصاديين عبر تاريخ الفكر الإقتصادي. وبينما تعتبر أفكاره حول النقود والإئتمان عرض لما هو موجود لدى الإقتصاديين، تثير تلك المتعلقة بالرأسمالية الكثير من النقاش حول مستقبلها.

الكلمات المفتاحية: يوفال نوح هراري، الرأسمالية، الإئتمان.

Abstract:

This research paper aims to clarify and to examine the originality of the most important economic ideas of the historian and philosophe Yuval Noah Harari, which appeared in his books “Sapiens’’ and “Homo-Deus,” and trying to present arguments against his ideas on capitalism and economic growth.

The research concluded that Harari’s ideas are lostly unoriginal, and reflect a prevailing position among a class of economists through the history of economic thought. While his ideas about money and credit are an exposition of the existed theory, his ideas about capitalism have much to do with its future.

Keywords: Yuval Noah Harari, capitalism, credit.

*عثمان عثمانية : O.atmania@univ-tebessa.dz

I- تمهيد:

في سنة 2014 صدرت الترجمة الإنجليزية لكتاب "العاقلون: تاريخ موجز للبشرية" للمؤرخ والفيلسوف يوفال نوح هراري، وهو كتاب يستكشف تطور الإنسان منذ خلقه إلى يومنا هذا، ويطرح الكثير من المسائل والأفكار بشكل إستفزازي يحث على النقاش. وقد اعتمد فيه الكاتب على مدخل متعدد العلوم فاعتمد على البيولوجيا، الإقتصاد، السوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا، علم اللاهوت...وقد جاءت أفكار هذا الكتاب مترابطة ومتسلسلة لتوضح لنا تطور الإنسان في علاقته مع الإنسان والمجتمع.

وقد خصص الكاتب جزءا من كتابه هذا للمسائل الإقتصادية، فتناول تطور النقود من العصور القديمة إلى يومنا هذا، كما خصص فصلا للعقيدة الرأسمالية تناول فيه تطور الإئتمان ووضح كيف كان لذلك تأثير حاسم على تطور النظم الإقتصادية وعلى الرأسمالية في حد ذاتها، التي يعتبرها أحد الديانات الحديثة، التي تجعل من النمو الإقتصادي أسمى غايات المجتمعات الإنسانية .

وقد أتبع كتاب العاقلون بكتاب ثان سنة 2016 بعنوان "الإنسان الإله،" الذي جاء مختلفا عن الأول، فبعد استكشافه لأغوار الماضي حاول إستشراف المستقبل وتوجيه النقاش نحو مسائل في غاية التعقيد، مثل إعتماد التطورات الحديثة في مجال البيوتكنولوجيا في إطالة عمر الإنسان، فكان أشبه إلى فيلم خيال علمي أمريكي - على شاكلة أفاتار -Avatar* منه إلى كتاب عن المستقبل، أما بالنسبة لأفكاره الإقتصادية في هذا الكتاب فقد جاءت متفرقة من فصل إلى آخر وارتبطت جلها بالرأسمالية.

مشكلة البحث

يحاج هراري في كتاباته بأن الرأسمالية مثلها مثل الكثير من الإيديولوجيات والقصص التي اخترعها الإنسان عبر الزمن هي أكثر من مجرد إيديولوجيات، بل يمكن اعتبارها ديانات مثلها مثل الإسلام أو المسيحية. ومثلما تعد الديانات الناس بالجنة بعد الموت، تعد الرأسمالية الشعوب بحياة أفضل، رفاهية أكبر وسعادة أعلى، وكل ذلك يتوقف على النمو الإقتصادي الذي يعتبره أسمى أهداف الرأسمالية. ويمكن صياغة مشكلة الدراسة في السؤال الآتي: "ما مدى أصالة أفكار هراري حول الرأسمالية؟ وما مدى موافقتها للنظرية الإقتصادية؟"

أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، من بينها:

- إستعراض أهم الأفكار الإقتصادية التي جاءت في كتابات هراري؛

* أفاتار Avatar هو فيلم خيال علمي أمريكي.

- نقل تلك الأفكار للساحة الفكرية العربية، سيما وأن بعض الدول العربية لم تصلها كتب هراري أو منعت دخولها إلى أراضيها؛
- إختبار أصالة تلك الأفكار مع ما هو موجود في النظرية الإقتصادية ومناقشتها.

منهجية البحث

يتبع هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، وهو المنهج الأنسب لاستعراض الأفكار الإقتصادية التي جاءت في كتابات هراري، وتقديم الحجج المضادة أو المؤيدة لتلك الأفكار، وهذا بالإعتماد على كتابات منظرين ومفكرين في مجالات علم الإقتصاد والإجتماع.

أولا: نظام الإئتمان أساس الإقتصاد الحديث

يرى هراري أن الإقتصاد الحديث والرأسمالية الحديثة لم تكن لتتطور لولا وجود نظام فعال للإئتمان يقوم على الثقة في المستقبل، إذ أن هذه الأخيرة هي المقابل الوحيد لأغلب النقود في العالم، وذلك كله ناتج عن القدرات المدهشة للخيال الإنساني. فالإقتصاد العالمي بقي في نفس الحجم لفترة طويلة من الزمن، ولم يتغير ذلك سوى في العصر الحديث. وقد بقيت البشرية محاصرة في مأزق عدم وجود نظام للإئتمان لآلاف السنوات، فبقيت الإقتصاديات جامدة لفترة طويلة إلى غاية اكتشاف نظام جديد قائم على الثقة في المستقبل، فقد سمح لنا الإئتمان ببناء الحاضر على حساب المستقبل.

ويشير هراري إلى أن الإئتمان ظهر في الثقافات الإنسانية بشكل أو بآخر منذ الماضي، لكن الأفراد آنذاك لم يعرفوا كيفية استعماله، لأنهم لا يثقون بأن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر، فقد كانوا يعتقدون أن الزمن الماضي أفضل من زمنهم، وزمنهم أفضل من المستقبل الذي سيكون أسوأ، فلماذا التوسع في الإئتمان إن كان الإقتصاد سيبقى في نفس الحجم؟ إذن هذه مخاطرة يمكن تفاديها. وبالتعبير الإقتصادي، إعتبروا أن الثروة محدودة، والاقتصاد يبدو وأنه لعبة محصلتها صفر، فالبندقية يمكن أن تزدهر لكن فقط بإفقار جنوة. لذلك خلصت عدة ثقافات إلى أن مراكمة النقود يعتبر إثما، كما ذكر الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام الذي قال أنه "من السهل على الجمل أن يدخل في سم الخياط من أن يدخل رجلا مملكة الإله ". (Harari,2014)

ومع مجيء الثورة العلمية ظهرت فكرة التقدم التي أقنعت الأفراد بالثقة أكثر فأكثر في المستقبل، تلك الثقة هي التي خلقت الإئتمان، والإئتمان جلب النمو الإقتصادي الحقيقي، والنمو عزز الثقة في المستقبل وفتح الطريق لإئتمان أكثر. كما أن التعارض القديم بين الثروة والأخلاق لم يعد قائما، حيث علم آدم سميث Adam Smith الناس ليفكروا في الإقتصاد كوضعية رابح-رابح، إذ أن الغني أصبح أكثر غنى بجعل الإقتصاد ينمو أكثر وليس بإفقار جاره. وقد بين سميث، صاحب أهم بيان في الإقتصاد حسب الكاتب، أن الذي يحقق أرباحا تتجاوز حاجة عائلته، سيستعمل الفائض في توظيف مساعدين، وكلما زادت أرباحه كلما وظف مساعدين أكثر، وبالتالي فالزيادة في أرباح المنظم الخاص أساس الزيادة في الثروة الجماعية والإزدهار، وبالتالي فأنانية الشخص في زيادة أرباحه الخاصة هي أساس الثروة الجماعية، وهذا ما اعتبره هراري أحد أكثر الأفكار ثورية في التاريخ البشري، (Harari,2014) كما أن جزءا هاما من النظام الرأسمالي المعاصر يقوم على تلك الفكرة. ويمكن تلخيص كل ذلك في الشكل الموالي:

الشكل 1: التاريخ الإقتصادي للعالم باختصار

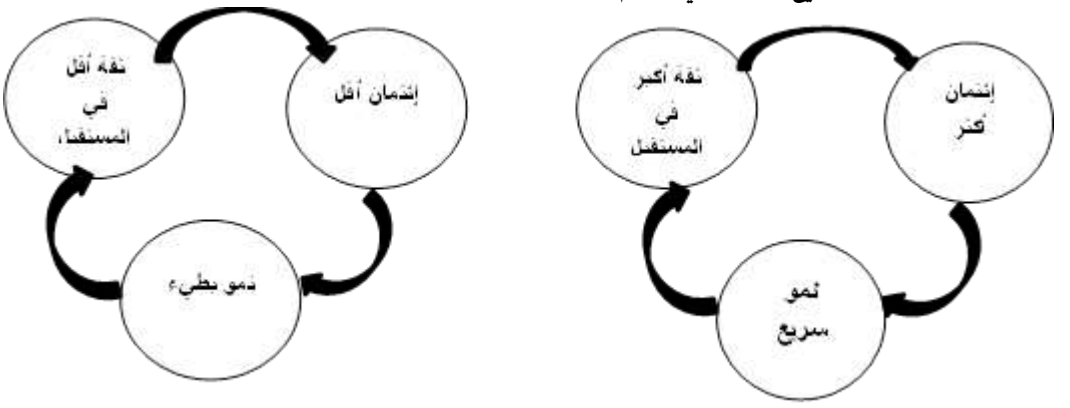

Source: Yuval Noah Harari, Sapiens: A Brief History of Humankind (London: Vintage, 2014), P.347.

يوضح الشكل رقم 1 كيف ساهمت الثقة في المستقبل على تشجيع الإئتمان، الذي انعكس بدوره في نمو أسرع، وهذا هو أساس الإقتصاد الحديث.

ويمكن الوقوف على قوة نظام الإئتمان من خلال مثال إسبانيا وهولندا. فإسبانيا كانت أقوى دولة في أوروبا في القرن السادس عشر، وكانت تبسط سيطرتها على الكثير من المناطق في العالم، بينما كانت هولندا بلدا صغيرا كثير الرياح وخالي من الموارد الطبيعية، وتحت سلطة ملك إسبانيا. وفي سنة 1568 ثار الهولنديون في وجه الحكم الكاثوليكي الإسباني، وخلال 80 سنة لم يؤمن الهولنديون استقلالهم عن إسبانيا فحسب، بل حلوا محل الإسبان والبرتغاليين، وبنوا إمبراطورية هولندية عالمية، وأصبحوا أغنى دولة في أوروبا. سر نجاح هولندا كان الإئتمان، فقد تمكنت من تمويل استكشافاتها بشكل أسهل من الإسبان، وكسبوا ثقة النظام المالي الأوروبي عن طريق دفعهم للقروض بالكامل وفي الوقت، وعن طريق استقلالية القضاء وحمايته لحقوق الملكية الخاصة.

1. الرأسمالية كدين

جاءت أفكار هراري حول الرأسمالية مجموعة في الفصل السادس عشر تحت عنوان "العقيدة الرأسمالية The Capitalist Creed" من كتابه العاقلون، وجاء بعضها متفرقا في كتابه الثاني "الإنسان الإله." وتفيد هذه الأفكار في عمومها في كون الرأسمالية هي النظام الأفضل على الإطلاق، وأن الرأسمالية مثلها مثل المسيحية أو الإسلام هي الأخرى دين.

يشير هراري إلى أن العصر الحديث شهد ظهور عددا من الديانات الحديثة المرتكزة على القانون الطبيعي مثل الليبرالية، الشيوعية، الرأسمالية والنازية. ولا تدعى هذه العقائد غالبا بالديانات بل الإيديولوجيات، وليس هذه

إلا تظليلا في دلالات الألفاظ. فمن منطلق أن مفهوم الدين "هو نظام من المعايير والقيم الإنسانية التي تقوم على الإعتقاد في نظام Order فوق بشري،"(Harari,2014) فالشيوعية ليست ديانة أقل من الإسلام!

يذكر هراري أن الرأسمالية بدأت كنظرية حول كيفية عمل الإقتصاد، وقد كانت وصفية وتوجيهية في نفس الوقت، حيث قدمت تفسيرا لكيفية عمل النقود وطورت فكرة أن إعادة إستثمار الأرباح في الإنتاج تؤدي إلى نمو اقتصادي أسرع. لكنها أصبحت تدريجيا أبعد من مجرد مذهب إقتصادي، فهي تشمل مجموعة من التعاليم المتعددة والأخلاقية حول كيفية تصرف الأفراد، تدريس أبنائهم وأيضا تفكيرهم. عقيدتها الأساسية هي أن النمو الاقتصادي هو سلعتها السامية، أو على الأقل معيار للسلعة السامية، لأن العدالة، الحرية وحتى السعادة كلها تعتمد على النمو الإقتصادي. (Harari,2014)

ما معنى أن الرأسمالية دين مثلها مثل الإسلام أو المسيحية؟ هذا يعني أن هراري يجادل بأنه لا يمكن أن تكون مسلما ومناصرا للرأسمالية في آن واحد، أو مسيحي ورأسمالي في نفس الحين، من منطلق أن الإنسان ليس بإمكانه أن يدين بدينين مختلفين في ذات الوقت. إذن هذا معناه أن الأمريكي الذي يستثمر جزءا من دخله في شراء أسهم شركة وول مارت ببورصة وول ستريت، والذي بفعله لذلك نسميه رأسماليا حسب ما ورد في كتاب هراري، لا يمكن أن نصفه بالمسيحي حتى وإن كان يحضر قداس الأحد ويتلو صلوات ما قبل العشاء مع العائلة، بل هو يدين بالرأسمالية!

وإن كانت اليد الخفية التي ذكرها آدم سميث مرة واحدة في الفصل الثاني من الكتاب الرابع من كتابه الشهير "ثروة الأمم" (Adam Smith,2012) يراها هراري تمثل النظام فوق البشري فهي ليست كذلك، لأن اليد الخفية التي ذكرها آدم سميث لا تعدو كونها النزعة الطبيعية للإنسان المتمثلة في السعي لتحقيق الأرباح، والتي لم تعد خفية بعد سميث .

كما أن اعتبار الشيوعية دينا من قبل هراري، حتى وإن كانت ترتكز على فكرة عدم الإيمان بوجود إله، فيه جناية على ماركس الذي يعتبره النبي المبشر بتلك الديانة، فماركس نفسه ينتقد الدين ويذكر في كتابه حول نقد فلسفة هيغل "الدين هو متنفس المخلوقات المظلومة، هو قلب العالم الخالي من قلوب، وروح الظروف التي ليست لها روح، إنه أفيون الشعوب." (Karl Marx,1970) فهل يعقل اعتبار أفكار من ينظر إلى الدين نظرة مزدرية مثل نظرة ماركس دينا؟

ويمكن الإتفاق مع هراري إلى حد ما بأن النمو الإقتصادي هدف هام للرأسمالية ومحدد أساسي لمستوى رفاه المجتمعات، إلا أنه لا يمكن أن يكون – بهذه البساطة- المحدد الأساسي للعدالة، الحرية والسعادة كما يذكر في كتابه.

بالنسبة للعدالة على مستوى توزيع الدخل على سبيل المثال، فقد بين توماس بيكيتي Thomas Piketty (Thomas Piketty,2014) بوضوح أن العدالة في التوزيع والتفاوت لا يعتمدان فقط على معدلات النمو الإقتصادي، فلا يكفي أن تكون تلك المعدلات مرتفعة حتى تزيد عدالة توزيع المداخيل بين أفراد المجتمع، بل ذلك يعتمد أيضا على معدل العائد على رأس المال، فكلما كان هذا الأخير أعلى من معدل النمو الإقتصادي كلما زاد التفاوت في المداخيل. وقد بين بيكيتي أن هذا هو حال العالم في القرنيني الماضيين، ويبدو أن ذلك سيستمر حتى في القرن الحادي والعشرين .

وبالنسبة للحرية فالدراسات التي تناولتها في ارتباطها بالرأسمالية أو الديمقراطية الليبرالية، تناولت شكلين للحرية هما الحرية الإقتصادية والحرية السياسية، (Milton Friedman,2002. Francis Fukuyama, 1992) ولكن العلاقة ليست بالضرورة في نفس الإتجاه الذي يعتقد هراري أنه السائد، أي أن النمو الإقتصادي يؤدي إلى الحرية، فعالم الإجتماع الأمريكي سايمور مارتن ليست Seymour Martin Lipset وضح أن "تزايد الثروة ليس مرتبطا سببيا فقط بتطور الديمقراطية عن طريق التغييرات الإجتماعية لظروف العمال، لكنه يؤثر أيضا على الدور السياسي للطبقة المتوسطة عبر تغيير شكل هيكل الطبقية، بحيث تتحول من هرم مطول ذو قاعدة كبيرة من الطبقة الدنيا، إلى ماسة مع تزايد الطبقة المتوسطة،" (Seymour Martin Lipset, 1959) وبالتالي فالتنمية الإقتصادية تؤثر على الديمقراطية ومنه الحرية بشكل غير مباشر عبر التنمية الإجتماعية .

وبالنسبة للسعادة فالإعتقاد بأن كلما ارتفع معدل النمو الإقتصادي، أو معدل نمو الدخل بالتحديد، كلما زادت سعادة الأفراد هو اعتقاد خاطئ. وقد بين ريتشارد إيسترلين Richard Easterlin فيما يعرف بـ"لغز إيسترلين" أنه في نقطة ما من الزمن يكون هناك ارتباط موجب بين الدخل والسعادة، ثم مع الزمن لا تصبح هناك علاقة بينهما، والسبب الرئيسي لذلك هو أن مع ارتفاع دخل المجتمع تتزايد تطلعاته المادية، لذلك لا يؤدي الدخل الأعلى إلى سعادة أكبر. (Richard A. Easterlin,1996)

2. الرأسمالية كنظام أوحد لاأخلاقي

يرى هراري بأن الرأسمالية هي النظام الإقتصادي الوحيد القادر على تحقيق النمو والرفاه للمجتمعات، فهو يجادل بأن "النظام الإقتصادي المعاصر لم يكن ليستمر يوما واحدا، إن فشل أغلب المستثمرين ورجال البنوك في الإيمان بالرأسمالية" ويضيف "الأسواق الحرة هي النظام الإقتصادي الأفضل، ليست بسبب أن آدم سميث قال ذلك، لكن بسبب أن تلك هي قوانين الطبيعة الثابتة ". (Harari,2014)

وبالعودة لحجة سميث، قد لا يفضل صاحب العمل الإستثمار وتوظيف عمال آخرين، بل قد يفضل الدفع أقل لعماله ليزيد أرباحه أكثر. في الحالة العادية قد يتركه العاملون لوحده في النهاية، وبالتالي طمعه سيمنعه من معاملة موظفيه بشكل سيء، ولكن هذا ممكن نظريا فقط لأن الواقع مختلف، فالأسواق الحرة من التدخلات، يمكن أن ينشئ فيها الرأسماليون احتكارات أو يتجمعون ضد القوى العاملة لديهم، الذين لن تعود لهم القدرة على حماية أنفسهم من تخفيض أجورهم بالإنتقال إلى وظائف أخرى.

ويشير هراري أيضا إلى أن العبودية سارت يدا بيد مع الرأسمالية، فأوروبا المسيحية لم تعرف العبودية في نهاية العصور الوسطى، بل كانت غير معروفة فيها. وتعتبر قوى السوق غير المضبوطة هي المسؤولة عن ذلك، فما بين القرون السادس والتاسع عشر، تم إيراد حوالي 10 ملايين إفريقي كعبيد إلى أمريكا، وعمل حوالي 70% منهم في صناعة السكر وفي ظروف عمل غير مقبولة.

ويعتبر هراري أن القرن التاسع عشر لم يجلب أي تحسن في أخلاق الرأسمالية، فالثورة الصناعية التي اجتاحت أوروبا أغنت رجال البنوك ومالكي رأس المال، لكنها حكمت على ملايين العاملين بحياة فقر مدقع. فالاقتصاد قد يستمر في النمو لكن أفراد أكثر قد يعيشون في الجوع والحاجة، لذلك "نمو الإقتصاد المعاصر تحول إلى احتيال كبير مثل الثورة الزراعية. " (Harari,2014) ومع ذلك فللرأسمالية إجابتان عن هذا الإنتقاد : (Harari,2014)

- خلقت الرأسمالية عالما لا يمكن لغير الرأسمالي إدارته، والطريقة الوحيدة لإدارة العالم بشكل مختلف كانت أسوأ بكثير في جميع الجوانب التي يمكن تصورها "حيث لا أحد له المعدة القوية ليجربها ثانية....قد لا نحب الرأسمالية، لكن لا يمكننا العيش من دونها".

- نحن بحاجة إلى المزيد من الصبر، فصحيح أنه كانت هناك أخطاء، لكننا تعلمنا دروسنا، ولو ننتظر قليلا ونسمح للإقتصاد بالنمو أكثر، فسيتحصل الجميع على جزء أكبر. وفي الواقع توزيع الأجزاء لن يكون عادلا، لكن سيكون هناك ما يكفي لإشباع الجميع .

كما أن الرأسمالية تثير الكثير من المسائل الأخلاقية، فيرى هراري أن للرأسمالية إجابة ثابتة: إذا كان النمو الإقتصادي يتطلب تخفيف الروابط الأسرية، تشجيع الناس على العيش بعيدا عن والديهم، واستيراد مقدمي الرعاية من الجانب الآخر من العالم، فليكن ذلك. وبمثل هذه القرارات قطعت الرأسمالية الحاجز من مجال علم إلى مجال دين . (Harari,2017)

يجادل هراري هنا بأن الرأسمالية هي النظام الإقتصادي الوحيد القادر على تحقيق النمو الإقتصادي وخلق الرفاه للمجتمعات. يمكن الإتفاق معه بأن الرأسمالية مسؤولة إلى حد ما عن رفاه الكثير من الأفراد عبر العالم اليوم، لكنها ليست بالتأكيد النظام الأوحد القادر على تحقيق ذلك، إذ أن للنظم فترة حياة ولا يمكن أن تستمر إلى الأبد.

لكن الرأسمالية لم تؤد نفس الرسالة في كل بلدان العالم، فبينما حققت أغلب أهدافها في الغرب، حكمت على ملايين البشر بالعيش في أسوأ الظروف في مناطق أخرى. فقد فرضت رأسمالية الكوارث، كما تصفها ناعومي كلاينNaomi Klein ، على بلد مثل بويرتو ريكو خصخصة الصحة والخدمات الأخرى، تسريح العمال بشكل كثيف، إغلاق المدارس، تقليص الحقوق الإجتماعية والإستثمارات في تحسين المعيشة الجماعية، مما أدى إلى إرتفاع أسعار الخدمات الأساسية، تقليص عال في التعليم العام، المعاشات، وقت العطل، والحقوق الأخرى...والنتيجة النهائية هي ترك أغلبية المجتمع دون أمل في المستقبل . (Naomi Klein,2018)

كما أنه لا يمكن الإتفاق مع هراري بأن الرأسمالية هي النظام الأوحد، فقط لأنها النظام الذي تمكن من الإستمرار. ففي حوار متجاذب بين أستاذ الإقتصاد وابنته حول اقتصاد السوق الحرة أو ما تفضل البنت تسميته بالرأسمالية، لأن هذا المصطلح في حد ذاته يوضح أنها تعمل في مصلحة رأس المال، ونتائجها الأهم هي: التبذير، الظلم والإغتراب، كان للأب نظرة مخالفة، إذ أن نظاما غير كامل يمكن إلغاؤه فقط إن كان هناك نظام آخر يمكن أن يحل مكانه، نظام يحظى بثقة قوية ويكون متفوقا على النظام القديم Giacomo) (Corneo,2017 بينما حدد عالم الإجتماع إيمانويل فالرشتاين خصائص النظام البديل، وهو النظام الذي يحتفظ بالسمات الأساسية للنظام الحالي: التسلسل الهرمي، الإستغلال والإستقطاب Immanuel) (Wallerstein,2013

ولا يعني نجاح الرأسمالية في العقود الماضية أن ذلك سيستمر إلى الأبد، فقد بين وولفغانغ ستريك Wolfgang Streeckفي كتابه المميز "كيف ستفشل الرأسمالية،" إلى أن التوترات والتناقضات داخل التركيبة السياسية-الإقتصادية الرأسمالية، تجعل من الممكن وباستمرار حدوث إنهيار هيكلي وأزمة إجتماعية... كما أن واقع أن الرأسمالية تمكنت حتى الآن من تجاوز كل توقعات موتها الوشيك، لا يعني أنها تستطيع أن تفعل ذلك إلى الأبد.

ولا يوجد أي دليل إستقرائي على ذلك، ولا يمكن إستبعاد إمكانية أنه في المرة القادمة مهما كان السلاح الخيالي الذي يتطلبه إنقاذ الرأسمالية، قد يفشل في الظهور(Wolfgang Streeck,2016)

وقد كانت حجة فالرشتاين بسيطة في بداية حديثه عن الأزمة الهيكلية للرأسمالية: "فالرأسمالية هي نظام، ولكل الأنظمة فترة حياة، وهي ليست خالدة أبدا." ويرى فالرشتاين أن نهاية الرأسمالية ستكون بسبب عاملين إثنين، أولهما الإتجاهات الهيكلية طويلة المدى للإقتصاد العالمي، التي ستجعل من الصعب على الرأسماليين مراكمة رأس المال بشكل لامتناهي، والثاني يتعلق بالنهاية الظرفية للهيمنة من قبل الليبراليين الوسطيين للجيوثقافة، الأمر الذي من شأنه أن يقوض إستقرار النظام العالمي(Immanuel Wallerstein, 2013) .

ويمكن الإتفاق مع هراري إلى حد بعيد بخصوص مسألة ما إن كانت الرأسمالية أخلاقية أم لا، وقد وضحت ماري لور دجليتش Marie-Laure Djelic كيف أن الرأسمالية إتجهت تاريخيا من كونها نظاما ذي أسس أخلاقية قوية إلى خسارة روحها نتيجة الضغوطات المختلفة التي واجهتها. (Marie-Laure Djelic,2005)

ثانيا: الرأسمالية والإمبريالية

ساهم الإئتمان بشكل هام في تمويل الإستكشافات في القرنين الخامس والسادس عشر، لكن تلك الإستكشافات لم تعد جميعها بالأموال، والكثير منها عادت خالية الوفاض، ومن أجل زيادة عدد المستثمرين المحتملين وتقليص المخاطر تحول الأوروبيون إلى شركات المساهمة.

من بين شركات المساهمة الأولى، شركة المساهمة الهولندية VOC التي تأسست سنة 1602، وقد إستعملت الشركة الأموال التي تحصلت عليها للتجارة مع الصين، الهند وأندونيسيا، هذه الأخيرة وصل إليها تجار الشركة أول مرة سنة 1603، وسرعان ما دخلت الشركة في صراع مع سلطات الأرخبيل التي كانت تعيق عمل الشركة بوضع رسوم عالية. فقامت الشركة بتسليح سفنها وتوظيف جنود ومرتزقة يابانيين، هنود، أوروبيين وأندونيسيين لمحاربة أندونيسيا، وانتهى ذلك بسقوط الأخيرة في قبضة الشركة، التي احتلت الجزء الأكبر منها لحوالي 200 سنة إلى غاية سنة 1800 حتى أصبحت أندونيسيا تحت احتلال الدولة الهولندية.

هذا المثال الذي ساقه لنا هراري يبرر لماذا يحذر البعض من السلطة المجتمعة لدى شركة القرن الحادي والعشرين، فالتاريخ يبين لنا ما الذي يحدث عندما تترك الشركات الخاصة لتتبع أهدافها الذاتية. ونتيجة لأهمية الإستثمار، التجارة ورأس المال للدول الأوروبية كانت هناك حروب لحماية إيديولوجيتها الإقتصادية، مثل الحرب بين بريطانيا والصين سنة 1842، لما منعت الصين المهربين البريطانيين من إغراق الصين بالأفيوم !

يركز هراري أيضا على العلاقة بين الرأسمالية والإمبريالية، ويعتقد أن الرأسمالية أدت دورا أساسيا في ظهور الأمبريالية الأوروبية، وهذه الأخيرة هي التي كانت مسؤولة عن خلق نظام الإئتمان الرأسمالي. وهذا ليس معناه أن الإئتمان بدأ في أوروبا، فقبل القرن الثامن عشر كان الإزدهار من نصيب آسيا، ولم تكن للدول الأوروبية رؤوس أموال بقدر ما كان للصينيين والهنود والمسلمين.

لكن النظم السوسيو-سياسية في الصين، الهند والعالم الإسلامي لم تعط أهمية كبيرة لنظام الإئتمان الذي أدى دورا ثانويا فيها، فأغلب الإمبراطوريات غير الأوروبية تم تأسيسها من قبل مجتاحين Conquerors كبار مثل نهراسي Nuhraci ونادر شاهNader Shah ، أو من قبل بيروقراطيين ونخب عسكرية كما في الدولة العثمانية،

والتمويل فيها كان عن طريق الضرائب والنهب، بعكس أوروبا التي كان التمويل فيها عن طريق الإئتمان بدل الضرائب، وكانت الإدارة تتركز في أيدي رأسماليين طموحهم زيادة العوائد على استثماراتهم.

تقدم كريستوفر كولومبوس سنة 1484 لملك البرتغال من أجل تمويل رحلته لاستكشاف طريق تجارية جديدة مع شرق آسيا، وكانت مثل هذه الرحلات مكلفة جدا، فيجب دفع نفقة السفينة، البحارة، المؤونة والجنود، كما أنها عالية المخاطر، إذ لا يوجد ما يضمن أنها ستدر أرباحا، فرفض الملك تمويله. فتوجه إلى إيطاليا، فرنسا وبريطانيا وكلهم رفضوا تمويله، فجرب حظه مع فرديناند Ferdinand وإيزابيلاIsabella ، وبمساعدة مجموعة من الضاغطين تمكن من إقناع الملكة بالإستثمار، وكان ذلك مجزيا جدا للملكة، حيث سمحت إستكشافات كولمبس لإسبانيا باحتلال أمريكا وملئ خزائنها بالذهب والفضة إضافة إلى السكر والتبغ، وهذا ما فتح المجال لمستكشفين آخرين فيما بعد للحصول على التمويل من أمراء ورجال بنوك.

ويشير هراري إلى هذه العملية بـ"الحلقة السحرية للرأسمالية الإمبريالية،" فالإئتمان مول إستكشافات جديدة، الإستكشافات أدت إلى مستعمرات، المستعمرات قدمت أرباح، الأرباح بنت الثقة والثقة ترجمت في إئتمان أكثر .

يسلط هراري الضوء هنا على الإمبريالية التي صاحبت الرأسمالية في تطورها، وقد بين لينين ذلك بداية القرن العشرين حيث اعتبر أن الإمبريالية في جوهرها الإقتصادي هي الرأسمالية الإحتكارية.(Vladimir I. Lenin, 1999) لكن هراري لم يذكر أن الإمبريالية لم تتراجع في متصف القرن العشرين، حتى مع تراجع الإستعمار الغربي ونيل أغلب المستعمرات لاستقلالها، بل غيرت وسائلها فقط. وقد اعترف جون بركنز John Perkins في كتابه الشهير "إعترافات قاتل إقتصادي" أنه لأكثر من نصف قرن كانت بنما محكومة من قبل أوليغارشية من العائلات الغنية ذات الروابط القوية مع واشنطن، والذين كانوا يتخذون أي إجراءات يعتبرونها ضرورية لضمان خدمة بلادهم لمصالح الو.م.أ(John Perkins,2004) كما اعترف أيضا أن ما كان يرتكبونه بالإعتماد على هذا الشكل الخفي من الإمبريالية، كان المكافئ المالي لما حاولوا فعله في الفيتنام عسكريا. (John Perkins,2004) إذن حتى في الزمن الحديث، لم تنأى الرأسمالية عن ممارساتها الإمبريالية لتحقيق مصالح وأطماع أصحاب رأس المال.

ثالثا: الرأسمالية والعلم

لقد كان للرأسمالية دور حاسم في تطور العلوم الحديثة، فالبحث العلمي عادة ما يمول من قبل الحكومات والمؤسسات الخاصة، والعلاقة بينهما هي علاقة متبادلة، فللعلم أيضا دور هام في الإبقاء على الرأسمالية، إذ أن المبالغة في طباعة النقود وضخ النقود الرخيصة في النظم الإقتصادية لدول مثل الو.م.أ، أوروبا واليابان هي بأمل أن يكتشف التقنيون والمهندسون شيئا كبيرا قبل انفجار الفقاعة، وإن لم يفعلوا ذلك فسنمر بأوقات صعبة .

وأغلب العلماء ورجال البنوك لا يهتمون بموضوع عملهم ما دام يقدم لهم فرصة لتحقيق اكتشافات جديدة وأرباح كبيرة. "فالرأسمالية بخلاف الديانات الأخرى التي تعد الناس بالجزاء في السماء، فهي تعد بمعجزات على الأرض وأحيانا تحققها فعلا" (Harari,2016)

هذه الأفكار ليست أصيلة في حد ذاتها، ففي أربعينيات القرن العشرين كتب الإقتصادي النمساوي جوزيف شومبيتر كتابه الشهير "الرأسمالية، الإشتراكية والديمقراطيةCapitalism, Socialism and Democracy ، " تحدث فيه عما سماه بالتدمير الخلاق (Joseph A. Schumpeter,2008) الذي يعتبر الحقيقة الأساسية

للرأسمالية، إذ أن محرك هذه الأخيرة يعتمد باستمرار على خلق سلع جديدة للمستهلكين، أساليب جديدة للإنتاج أو النقل، أسواق جديدة وأشكال جديدة من التنظيم الصناعي الذي تخلقة المؤسسات الرأسمالية .

وفي كتابه الحديث (Yuval Noah Harari,2018) يتحدث هراري عن القوة التدميرية لما سماه بالتكنولوجيا المدمرة، وخاصة الذكاء الإصطناعي والبيوتكنولوجيا، ويعتبرها التحدي الأهم في القرن الحادي والعشرين. وبالتالي فالتغيرات التكنولوجية في هذا القرن ستؤدي إلى زوال الإيديولوجيات التي سادت خلال القرون الماضية، ولن تصبح لا الرأسمالية ولا الليبرالية قادرة على البقاء. ومنه نحن اليوم على طرف نقيض، فالعلم ليس في خدمة الرأسمالية كما رأى سابقا، بل هو الذي سيؤدي إلى نهايتها.

رابعا: الرأسمالية والسياسة

يعتقد هراري أن رأس المال والسياسة كل منهما يؤثر على الآخر، إلى حد يجعل علاقتهما تناقش بحرارة من قبل الإقتصاديين، السياسيين وعامة الجماهير على حد سواء. فيجادل الإقتصاديون المتحمسون بأنه على رأس المال أن يؤثر على السياسة، لكن لا يجب السماح للسياسة بالتأثير في رأس المال، لأن ذلك يجعل من قرارات الإستثمار غير حكيمة، ما ينعكس في نمو أبطأ.

ويعتبر الإعتقاد في وجود سوق حرة من كل التدخلات أمر ساذج وأشبه بالإيمان بسانتا كلوز، فلا يوجد أي شيء يشبه السوق الحرة من كل التدخلات السياسية. (Harari,2014) كما أن الأسواق لا تقدم حماية ضد الإحتيال، السرقة والعنف، فهذا عمل الأنظمة السياسية التي تضمن الثقة من خلال تشريع عقوبات ضد الخداع وتأسيس ودعم قوى الشرطة، المحاكم والسجون التي ستعزز القانون.

لقد دافع الكثير من الإقتصاديين طيلة عقود عن الرأسمالية النقية Pure capitalism الخالية من تدخلات الحكومة، فجادل فريدرتش هايك Friederiech A. V. Hayek بأن تجمع السلطة لدى فئة قليلة هو أشبه للعبودية، وبين ميلتون فريدمان Milton Friedman أن الحكومة الأكبر من أي وقت مضى ستدمر الرخاء الذي ندين به للسوق الحرة والحرية الإنسانية، كما بين في ورقة مستقلة أن الحكومة هي المشكل بسبب تأثير المصالح الخاصة، واستفادة القلة فقط من المنافع العالية التي تقدمها الحكومة، هذه الأخيرة يعتبرها فريدمان مشكلا للكثير من المجالات من التعليم والإسكان إلى ازدحام الطرق والمطارات .

وقد كان لهذا الفكر الأولوية في صنع القرارات والسياسات انطلاقا من سبعينيات القرن العشرين، سيما مع الركود التضخمي للسبعينيات وصعود الثاتشرية-الريغنية Thatcherism-Reaganism في الثمانينيات، لكنه انهار أمام أكبر أزمة للرأسمالية في القرن الحادي والعشرين: الأزمة المالية العالمية لسنة 2008، التي اعتبرها الكثيرون تركة فكر فريدمان والذين يدعون لدور أقل للحكومات.

I. الخلاصة:

لقد كانت نظرة هراري للرأسمالية نظرة فلسفية أكثر منها نظرة عملية، فنظر لها كديانة من الديانات الإنسانية الحديثة، وهذا مختلف عن النظرة التقليدية العملية التي تراها كنظام اقتصادي واجتماعي لتنظيم الإنتاج وضبط العلاقات بين أفراد المجتمع. كما اعتبرها نظاما أوحد بعد فشل الإشتراكية، لكنه اعترف بوجود شوائب أخلاقية تشوب البناء الرأسمالي بالرغم من الإجابات الجاهزة للإنتقادات من هذا النوع.

وقد كانت أغلب أفكاره حول الرأسمالية أفكارا غير أصيلة وتفتقر إلى العمق، إلا أنه أجاد في إثارة النقاش حول كون الرأسمالية في البلدان الرأسمالية أبعد من مجرد نظام اقتصادي واجتماعي، حتى على المستوى الفردي فهناك إيمان أعمى في قدرة الأسواق الحرة على تحقيق المعجزات، ما يعكس بناء إجتماعيا ماديا قد يصطدم في النهاية بعدم قدرة الرأسمالية على الإستمرار.

ونجح هراري في توضيح العلاقة الجدلية بين الإمبريالية والرأسمالية، إذ أن قسما هاما من الحضارة الغربية يعود الفضل فيه إلى السياسات الإمبريالية للغرب في القرون الماضية، ولكنه لا يتخذ موقفا صريحا من ذلك ويعتبر الإمبراطورية الشكل الأمثل للنظم السياسية التي اخترعها الإنسان.كما نجح في إثارة النقاش حول شركة القرن الحادي والعشرين، والتي يمكنها امتلاك سلطات مثل تلك التي امتلكتها الشركات الأولى في القرن السابع عشر، وما يمكن أن يحمله من مخاطر للدول والمجتمعات.

لكن نظرته بخصوص نهاية الليبرالية والرأسمالية تعتبر أصيلة فعلا، إذ يرى أن التكنولوجيات الحديثة والقدرة على اختراق وقرصنة معلومات الأفراد، وأيضا إمكانية التأثير على مشاعر الأفراد وأحاسيسهم وتوجيهها نتيجة لتزاوج تكنولوجيا المعلومات مع الذكاء الإصطناعي والبيوتكنولوجيا، يقضي على فكرة الإرادة الحرة وحرية الإختيار، وهي أسس الليبرالية، ما يجعل من الإيمان الأعمى فيها أمرا عالي الخطورة.

- **الاحالات والمراجع:**

• المؤلفات:

1. Adam Smith, An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations (Hertfordshire: Wordsworth Editions Ltd., 2012)
2. Francis Fukuyama, The End of History and The Last Man (New York: The Free Press, 1992).
3. Giacomo Corneo, Is Capitalism Obsolete: A Journey Through Alternative Economic Systems, Trans. Daniel Steuer (Cambridge (MA): Harvard University Press, 2017)
4. Immanuel Wallerstein, ''Structural Crisis, Or Why Capitalists May No Longer Find Capitalism Rewarding.'' In: Immanuel Wallerstein et al., Does Capitalism Have a Future? (New York: Oxford University Press, 2013)
5. Immanuel Wallerstein, ''Structural Crisis, Or Why Capitalists May No Longer Find Capitalism Rewarding.'' In: Immanuel Wallerstein et al., Does Capitalism Have a Future? (New York: Oxford University Press, 2013)
6. John Perkins, Confessions of An Economic Hit Man (San Francisco: Berrett-Koehler Publishers, Inc., 2004)
7. Joseph A. Schumpeter, Capitalism, Socialism and Democracy, 3rd ed. (New York: Harper Perennial Modern Thought, 2008)
8. Karl Marx, Critique of Hegel's Philosophy of Right (Oxford: Oxford University Press, 1970)
9. Marie-Laure Djelic, ''How Capitalism Lost Its Soul From Protestant Ethics to Robber Barons.'' In: Daniel Daianu and Radu Vranceanu, Ethical Boundaries of Capitalism (Aldershot (England): Ashgate, 2005)
10. Milton Friedman and Rose Friedman, Free to Choose: A Personal Statement (New York: Harcourt Brace Jovanovich, Inc., 1980)

11. Milton Friedman, Capitalism and Freedom (Chicago: The University of Chicago Press, 2002).
12. Naomi Klein, The Battle for Paradise: Puerto Rico Takes On The Disaster Capitalists (Chicago: Hay Market Books, 2018).
13. Richard A. Easterlin, Growth Triumphant: The Twenty-first Century in Historical Perspective (Michigan: University of Michigan Press, 1996).
14. Thomas Piketty, Capital in the Twenty First Century, Trans. Arthur Goldhammer (Cambridge (MA): Harvard University Press, 2014).
15. Vladimir I. Lenin, Imperialism: The Highest Stage of Capitalism (Chippendale (Australia): Resistance Books, 1999)
16. Wolfgang Streeck, How Will Capitalism End? Essays on a Failing System (London: Verso, 2016)
17. Yuval Noah Harari, 21 Lessons for The 21st Century (New York: Penguin Random House LLC., 2018)
18. Yuval Noah Harari, Homo Deus: A Brief History of Tomorrow (London: Vintage, 2017)
19. Yuval Noah Harari, Sapiens: A Brief History of Humankind (London: Vintage, 2014)

المقالات:

1- Lipset, Seymour Martin. “Some Social Requisites of Democracy: Economic Development and Political Legitimacy.” The American Political Science Review, Vol.53, N°.1 (March 1959).

2- Milton Friedman, ‘’Why Government Is The Problem,’’ Essays in Public Policy, Stanford, California: Hoover Institution Press, N°. 39. 1993.